تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 283 مايو 2023

الزخارف في تراث الإمارات...
جماليات وابتكار واستدامة

السدو وزخارف المرأة
التي زيَّنت حياة البادية

الجزيرة الحمراء:
ذاكرة عمرانية متجذرة منذ قرون

الحضارات لاتقوم على الخرافات

النخلة وحدة زخرفية تراثية دلالية في الإمارات

الشعر كجريدة شعبية
توثق أربعينيات الكويت

نجوم القيظ والاستدلال عليها

ذكريات زمن البدايات:
مسلسل شعبي رمضاني «سياحة في الوطن»

نادي تراث الإمارات يحتفي باليوم العالمي للتراث

أصداء السيرة الذاتية في مجموعة (شيربروك)

للكاتبة السعودية نادية عبد الوهاب خوندنه

عبد الحكيم الزبيدي

صدرت هذه المجموعة القصصية عن نادي مكة الأدبي، ومؤسسة الانتشار العربي في الشارقة، عام 2022م. وهي تحتوي على إحدى عشرة قصة قصيرة، وقد اختارت لها الكاتبة عنوان إحدى قصص المجموعة (شيربروك) وهو اسم شارع (Sherbrooke) في مدينة مونتريال في ولاية كيبيك في كندا، وقد قضت الكاتبة في هذا الشارع مدة من الزمن حيث سافرت لزيارة ابنتها المقيمة هناك مع زوجها وأسرتها ثم حبست عن السفر بسبب جائحة كورونا. وقصص المجموعة تدور أحداثها في كندا وبالتحديد في شارع (شيربروك)، فيما عدا قصة واحدة تدور أحداثها في مكة المكرمة بلد الكاتبة.

والقارئ الذي يعرف شيئاً من سيرة الكاتبة نادية خوندنه يستطيع أن يدرك كثيراً من التشابه بين شخصيات المجموعة القصصية (شيربروك) من جهة، وصفات الكاتبة ونزعتها الأخلاقية، وشخصيتها المتسامحة المحبة لجميع البشر على اختلاف ألوانهم وأديانهم وثقافتهم وبلدانهم، من جهة أخرى. وعليه فإننا نستطيع أن ندرج هذه المجموعة القصصية، ضمن ما يمكن أن يُطلق عليه (أدب السيرة الذاتية)، فجميع قصص المجموعة مستمدة، في تقديري، من وقائع حقيقية وقعت للكاتبة. وقد أقرت الكاتبة في كلمتها التي وضعتها على الغلاف الخلفي للمجموعة أن «معظم هذه الحكايات.. يختلط فيها الواقع بكثير من الخيال، كما تختلط الثقافتان العربية والغربية في بوتقة الإنسانية وهمومها وأحاسيسها».

ولعل أول صفة تسترعي الانتباه في شخصية الكاتبة، وتستحق التقدير والإشادة هو اهتمامها بأسرتها ومنحها الأولوية إذا تعارض ذلك مع طموحاتها الشخصية، فقد تركت الدراسة والعمل مدة زمنية طويلة لتتفرغ لتربية أبنائها ورعاية أسرتها، وحين كبر أبناؤها عادت لتواصل طموحها في التعلم والتدريس والكتابة الأدبية والترجمة، وهي بهذا تضرب المثل للمرأة المسلمة التي لم تتخلَّ عن أنوثتها وأسرتها لتحقيق طموحاتها الشخصية، كما لم تتخلَّ عن طموحاتها الشخصية وتقبع وراء جدران البيت، فاستطاعت بقدرة فائقة أن تجمع بين الأمرين؛ أن تكون أماً وزوجة وربة بيت ناجحة، وفي الوقت نفسه كاتبةً ومترجمةً ومحاضرةً ومؤلفةً متألقة. ولا شك أن لوالديها، وزوجها وأبنائها دوراً كبيراً في مساعدتها على تحقيق ذلك، ما يدل على أنها نشأت وعاشت في أسرة تحب العلم والعمل وتقدر دور المرأة في المجتمع.

وإذا بحثنا عن مدلولات هذه الصفة في قصص المجموعة، سنجد أن الكاتبة في قصة (حورانية) تنتقد تصرف صديقتها التي آثرت أن تحقق طموحاتها في الدراسة حتى حصلت على الماجستير، ورفضت كل من تقدم لخطبتها حتى لا يعوقها الزواج عن تحقيق طموحاتها، فكانت النتيجة أن بلغت الستين وكانت تعيش بمفردها بلا أسرة أو أبناء، وماتت وحيدة لم يعلم بها أحد، ولولا صديقتها (الكاتبة) لما علم أحد بوفاتها. تقول الكاتبة على لسانها: «كنت أجمل فتاة في عائلتي، ولكن طموحي الدراسي كان كالمارد يحرس قلبي ويصد المتوددين إلي»، فكان الندم والحسرة هي الحصاد الذي حصدته، ولم تستطع فرحتها بتحقيق حلمها أن تبدد هذه الحسرة وهذا الندم، تقول الكاتبة واصفة حالها: "فرحتها بالإنجاز وتحقق الحلم الكبير كانت مرقشة بتنهدات الحسرة والندم على افتقاد شريكٍ للروح، تتشارك معه في لذة تحقق الأحلام وتجسدها على أرض الواقع». والكاتبة بذلك توجه رسالة لبنات جنسها المتوثبات لتحقيق طموحهن في الدراسة والعمل وتحقيق الأحلام، أن ينتهن وألا ينسين أن مكانهن الطبيعي هو مع الأسرة والزوج، فلا ينبغي أن يطغى جانب على آخر. وقد استطاعت الكاتبة في حياتها أن تحقق هذا التوازن

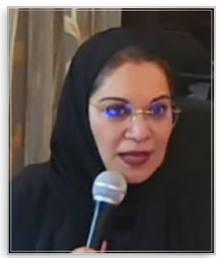

الجميل بين تحقيق الطموحات الشخصية، والاهتمام بالأسرة والزوج والأبناء.

كما تتجلى صفة الأمومة وما يتعلق بها من الرحمة والحب اللذين يفعمان قلب الكاتبة، في قصة (شرفتان وقلب)، وتحكي فيها أن شاباً صغيراً ناداها من شرفة شقته وهي تحاول اللحاق بالباص لحضور محاضرة مهمة، وطلب منها أن تساعده حيث أغلق الريح باب الشرفة ولا يستطيع الدخول للشقة لأن باب الشرفة لا يفتح إلا من داخل الشقة، وذلك نوع من الاحتياطات الأمنية حتى لا يتمكن اللصوص من دخول الشقق من شرفتها، وكانت في عجلة من أمرها وتعلم أن وقوفها لمساعدته ولو لدقائق تعني أن تضيع منها فرصة كانت تنتظرها من أسبوعين، وقد سوّل لها الشيطان أن تمضي وتترك الشاب لمصيره لولا أنها تذكرت موقفاً مشابهاً مر بها كان فيه ابنها ذو العامين قد أغلق على نفسه باب الغرفة ولم يستطع فتحه من الداخل وظل بمفرده يصيح وأمه خارج الغرفة لا تدري كيف تنقذه. وهنا تقرر بطلة القصة أو الكاتبة، أن تضحي بحظها الشخصي، فتعين الشاب على الخروج من مأزقه، وذلك من خلال الاتصال بأمه التي لديها نسخة من مفتاح الشقة. وقد تكون حادثة انغلاق الباب على ابن بطلة القصة قد تكون حقيقية وقد تكون متخيلة، حيث تصورت بطلة القصة أن ابنها هو المحبوس في الشرفة، وعلى هذا الأساس تصرفت هذا التصرف وقررت مساعدته والتضحية بحظها الشخصي. وهنا تتجلى لنا الكاتبة بصفتها الأم التي تضحي بحظها الشخصي من أجل أسرتها وأبنائها.

أما مدلولات صفة المترجمة، وتمكن الكاتبة من اللغة الإنجليزية، فيتضح من خلال عناوين بعض القصص، حيث اختارت لها كلمات غير عربية، مثل (شيربروك) وهي اسم شارع شهير في مدينة مونتريال في كندا، وهو العنوان الذي اختارته للمجموعة كاملة، وكان بإمكانها اختيار عنوان آخر له صبغة عربية، ولكنها آثرت هذه الكلمة الإنجليزية، كما وضعت لإحدى القصص عنوان (توليب) وهو الاسم الإنجليزي لنوع من الزهور (Tulip) يُسمّى في العربية (اللَعْلَع). كما يتضح ذلك من خلال كتابتها لبعض المسميات الواردة في بعض القصص بالحروف اللاتينية أيضاً، مثل قولها: «كانت الغرفة مطلة على الساحة الكبيرة المجاورة لمركز الفنون (Place des Arts)، وذكرها لبعض الاحتفالات التي كانت تقام في مدينة مونتريال، مثل المهرجان الكوميدي (Just for Laughs)، إلخ ذلك.

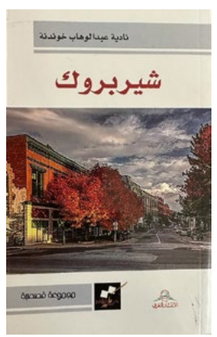

ومن صفات الكاتبة التي تجلت في المجموعة حبها لوطنها الصغير مكة المكرمة ووطنها الكبير المملكة العربية السعودية. أما حبها لمكة فيتجلى في قصة (الإنسية) التي كتبتها المؤلفة، كما تقول في الغلاف الخلفي للكتاب، «من

وحي حنينها الجارف للمدينة المقدسة ولطفولتها فيها». وفي هذه القصة القصيرة تحكي الكاتبة زيارتها لحارة (الفلق)، التي تقع شمال المسجد الحرام وهي حارة من الحارات العتيقة التي يرجع تاريخها إلى عهد سيدنا عبد الله بن الزبيررضي الله عنه، وقد سكن هذا الحي كثيرمن الفضلاء من العلماء والأعيان، ويبدو أن الكاتبة قد نشأت في هذا الحي، ويرتبط في مخيلتها بذكريات جميلة. تقول الكاتبة: «قضيت ساعاتٍ طوالاً في منزل العائلة الكبير الذي عشت فيه سنوات الطفولة والصبا ألملم ذكريات سعيدة». وتقول الكاتبة في قصة (توليب) عن مكة: «يا إلهي الطف بي بلطفك الخفي، لقد أكرمتني طوال عمري بسكنى خير البقاع وأطهرها وأحبها إليك». وأما حبها لوطنها الكبير المملكة العربية السعودية فيتجلى في أكثر من قصة، منها قصة (آن الأوان)، التي تحكي قصة ممرضة كندية عملت في السعودية لسنوات عدة ثم عادت إلى وطنها بعد بلوغها الستين، ولم تكن تفكر في زيارة المملكة، ولكنها بعد أن سمعت ورأت في نشرات الأخبار التغيرات التي حصلت في السعودية قررت العودة لزيارتها واستعادة ذكرياتها الجميلة فيها، تقول الكاتبة واصفة حال البطلة: «ما رأته عينا آن على الشاشة هذا المساء من حياة طبيعية عبقة بالتسامح والاعتدال والحرية للجميع جعلها أخيراً تجيب عن السؤال الذي تجنبته طوال ثلاثين عاماً». وهنا قالت لنفسها: «ها قد آن الأوان للذهاب إلى الرياض كسائحة وتنسم نفحات الانفتاح على العالم». وقد أحسنت الكاتبة في استخدام الجناس بين عنوان القصة (آن الأوان) واسم بطلة القصة (آن). والقصة الأخرى التي تبين مدى حبها لوطنها السعودية، جاءت بعنوان (الرسالة الأخيرة)، وفيها تحكي قصة عجوز كندي ملحد اهتدى إلى نور الإسلام من خلال طبيبة سعودية مبتعثة للدراسة في كندا، ورغم أنه قضى عقوداً عدة بالسعودية مهندساً في شركة كندية تعمل في المملكة فإنه لم يهتدِ إلى الإسلام إلا بعد عودته إلى كندا والتقائه بالطبيبة السعودية (نورة) التي استطاعت أن تستحوذ على إعجابه بشخصيتها وثقافتها وحبها لوطنها، حيث كانت تلقي محاضرات عن السعودية «تحدثت فيها عن الآفاق الجديدة أمام المرأة السعودية، وقد قدمت عرضاً مذهلاً كان أشبه بالخيال وأقرب للمستحيل لولا أنها دعمت عرضها بإحصائيات وبيانات دقيقة وأمثلة كثيرة واقعية»، وقد أهدت للعجوز الكندي مجموعة من الكتب عن الإسلام ولكنها لم تدعه إلى الإسلام مباشرة، فكان أن تأثر بها وأحب الإسلام من خلالها فأعلن إسلامه أخيراً في رسالة إيميل بعثها لها بعد عودتها إلى المملكة. وفي مقابل هذه المبتعثة السعودية التي أعطت صورة جميلة لبنات بلدها، نجد في قصة (شباب قلب) الصورة المقابلة للشاب العربي المغترب في كندا، ولم تذكر الكاتبة جنسيته وإنما أشارت إليها بخفاء من خلال ذكرها أن بلده تشهد حرباً، الذي استغل مشاعر امرأة كندية أرملة، واستطاع أن يوهمها بحبه لها رغم أنها تكبره بعشرين عاماً، وجعلها تغدق عليه من مالها حتى يستطيع الحصول على الجنسية الكندية، ثم غدربها وتركها وتزوج فتاة من سنه. وبذلك أعطى صورة سلبية عن الإنسان العربي. وقد أحسنت الكاتبة إذ أشارت في القصة نفسها إلى أن تلك المرأة الكندية كانت زوجة لمغترب عربي بادلها مشاعر الحب وتزوجها وعاش معها في سعادة وأنجبت له ابنتين ثم غادر الحياة بعد إصابته بأزمة قلبية. وبذلك عرضت الكاتبة في القصة نفسها لنموذجين من الشباب العربي المغترب في كندا، نموذج المخلص ونموذج المستغل المخادع.

ومن الصفات التي تعبر عن الكاتبة صفة الإخلاص في الصداقة التي تتجلى في قصة (حورانية) وهي قصة من وحي جائحة كورونا، فقد تعرفت بطلة القصة إلى امرأة كندية من أصل آيرلندي، وتبادلت معها الزيارات، وربطت بينهما صداقة متينة، ولكن جائحة كورونا منعتهما من اللقاء فاستمر التواصل بينهما عبر الهاتف. وحين انقطع تواصل صديقتها بها عبر الهاتف قلقت عليها، وخرجت لتزورها في منزلها وتطمئن عليها، مخالفة بذلك قرار الحظر، فاعترضتها سيارة الشرطة وحين أخبرت الشرطيين عن صديقتها، ذهبا معها إلى منزلها، وطلبا منها الانتظاروصعدا إلى شقتها، ثم عادا وأخبراها أنهما وجداها ميتة. وهذه القصة تصور إخلاص الكاتبة للصداقة وتعريض نفسها لخطر الإصابة بكورونا وخطر الحصول على مخالفة لتحديها قانون الحجر الصحي،

كل هذا لتطمئن على صديقتها، وتساعدها إن كانت بحاجة إلى مساعدة. الصفة الأخيرة التي تصفها المجموعة من صفات الكاتبة، هي صفة الإنسانية، وهذه تتجلى في أكثر من قصة، ولكنها تتجلى أكثر في قصة (شيربروك)، حيث تعاطفت الكاتبة أو البطلة مع امرأة مشردة تعيش في إحدى الحدائق وتتصرف بغرابة تدل على أنها مصابة بمس من الجنون، وحين اقتربت منها البطلة استأنست إليها، وحين جاء شخصان لأخذها إلى المصحة النفسية، أعطت البطلة قصاصة ورق وطلبت منها أن تزور قبر ابنتها نيابة عنها كلما سنحت لها الفرصة. ولا تخلو المجموعة من الطرافة، كما في قصة (طوارئ) التي تحكي فيها الكاتبة عن زيارة البطلة لطبيب الأسنان في كندا لألم طارئ حل بأحد أسنانها، ولما كانت لديها (فوبيا) من أطباء الأسنان، فقد حاول الطبيب تهدئتها من خلال إحضار كلبة صغيرة جميلة، ووضعها في حجرها وهي مغمضة عينيها، وحين أحست بها فتحت عينيها فلما رأتها قفزت مفجوعة من كرسي الأسنان، وأخذ الطبيب يعتذر إليها، لأنه لم ينتبه (لاختلاف الثقافات).

بقيت كلمة أخيرة، حول أسلوب الكاتبة، فأسلوبها يتسم بالسلاسة والجمال، والخلو من التعقيد والغموض. ولديها قدرة على تصوير المشاعروالأحاسيس وشد القارئ منذ السطور الأولى للكتاب حتى لا يتركه إلا وقد فرغ منه في جلسة واحدة. وتمتاز قصص المجموعة بغلبة الحس الإنساني والتواصل مع الآخر، ومد جسور التواصل الحضاري والثقافي مع الثقافات المختلفة مع التمسك بالثوابت ولكن في جو من التسامح والحب.

وأسلوبها يميل إلى الشاعرية، وسردها الوصفي لا يخلو من جمال التشبيهات والاستعارات، ومن ذلك قولها:

«قضيت ساعاتٍ طوالاً في منزل العائلة الكبير الذي عشت فيه سنوات الطفولة والصبا ألملم ذكرياتٍ سعيدةً، عميقةً كبئر زمزم، كثيرةً كأعداد الطائفين بالبيت العتيق، صادقة المشاعر والحنين كدموع الخاشعين عند الملتزم».

وقولها: «الحمد لله البرودة تُحتمل إذا ضحكت لنا الشمس قليلاً». وقولها: «تثاءب ضميري وهو يتمطى بكسل».

وقولها: «وهو الطالب العربي الشاب الذي اشتد أوار الحرب في وطنه وفزعت حمامات السلام فيه، فحلقت خارج حدود الأسوار حاملة بقايا أرغفة خبزوكرامة، زوّادة حتى تصل إلى بر الأمان».

وقولها: «لم نشعر بالوقت يمر بنا سريعاً مثل ظبي يعدو في فلاة».

وقولها: «أتم غرس إبرته العملاقة وسط دموعي المنهمرة كغيث جادت به السماء بعد قحط شديد».

بقي أن نذكر أن الكاتبة محاضرة أدب إنجليزي بقسم اللغة الإنجليزية، في جامعة أم القرى. وهي كاتبة ومترجمة أدبية، صدر لها كتاب «لطائف المعنى: دراسات في السرد الأدبي السعودي» عن دار المفردات للنشر عام 2019. ولها العديد من الأبحاث النقدية المحكمة والمحاضرات النقدية والثقافية العامة التي قدمتها باللغتين العربية والإنجليزية ■

* شاعروباحث من الإمارات